

تفسير ابن كثير

وَيَسْبَحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ

(ويسبح الرعد بحمده) كما قال تعالى : (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) [الإسراء :

44] . وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، أخبرني أبي قال : كنت

جالسا إلى جنب حميد بن عبد الرحمن في المسجد ، فمر شيخ من بني غفار ، فأرسل

إليه حميد ، فلما أقبل قال : يا ابن أخي ، وسع له فيما بيني وبينك ، فإنه قد صحب رسول

الله صلى الله عليه وسلم . فجاء حتى جلس فيما بيني وبينه ، فقال له حميد : ما الحديث

الذي حدثني عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ؟ فقال الشيخ : سمعت رسول الله -

صلى الله عليه وسلم - يقول : " إن الله ينشئ السحاب ، فينطق أحسن النطق ، ويضحك

أحسن الضحك " . والمراد - والله أعلم - أن نطقها الرعد ، وضحكها البرق . وقال موسى

بن عبيدة ، عن سعد بن إبراهيم قال : يبعث الله الغيث ، فلا أحسن منه مضحكا ، ولا

أنس منه منطقا ، فضحكه البرق ، ومنطقه الرعد . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ،

حدثنا هشام بن عبيد الله الرازي ، عن محمد بن مسلم قال : بلغنا أن البرق ملك له أربعة وجوه : وجه إنسان ، ووجه ثور ، ووجه نسر ، ووجه أسد ، فإذا مصع بذنبه فذاك البرق . وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا عبد الواحد بن زياد ، حدثنا الحجاج ، حدثني أبو مطر ، عن سالم ، عن أبيه قال : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا سمع الرعد والصواعق قال : " اللهم ، لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك " . ورواه الترمذي ، والبخاري في كتاب الأدب ، والنسائي في اليوم والليلة ، والحاكم في مستدركه ، من حديث الحجاج بن أرطاة ، عن أبي مطر ، ولم يسم به . وقال [الإمام] أبو جعفر بن جرير : حدثنا أحمد بن إسحاق ، حدثنا أبو أحمد ، حدثنا إسرائيل ، عن أبيه عن رجل ، عن أبي هريرة ، رفع الحديث قال : إنه كان إذا سمع الرعد قال : " سبحان من يسبح الرعد بحمده " . وروي عن علي - رضي الله عنه - أنه كان إذا سمع صوت الرعد قال : سبحان من سبحت له . وكذا روي عن ابن عباس ، والأسود بن يزيد ، وطاوس : أنهم كانوا يقولون كذلك . وقال الأوزاعي : كان ابن أبي زكريا يقول : من قال حين يسمع الرعد : سبحان الله ويحمده ، لم تصبه صاعقة . وعن عبد الله بن الزبير أنه كان إذا

سمع الرعد ترك الحديث وقال : سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ،
ويقول : إن هذا لو عيد شديد لأهل الأرض . رواه مالك في الموطأ ، والبخاري في كتاب
الأدب . وقال الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن داود الطيالسي ، حدثنا صدقة بن موسى ،
حدثنا محمد بن واسع ، عن شتير بن نهار ، عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - قال : " قال ربكم عز وجل : لو أن عبيدي أطاعوني لأسقيتهم المطر بالليل ،
وأطلعت عليهم الشمس بالنهار ، ولما أسمعتهم صوت الرعد " . وقال الطبراني : حدثنا
زكريا بن يحيى الساجي ، حدثنا أبو كامل الجحدري ، حدثنا يحيى بن كثير أبو النضر ،
حدثنا عبد الكريم ، حدثنا عطاء ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه
وسلم : " إذا سمعتم الرعد فاذكروا الله ، فإنه لا يصيب ذاكرا " . وقوله : (ويرسل
الصواعق فيصيب بها من يشاء) أي : يرسلها نقمة ينتقم بها ممن يشاء ، ولهذا تكثر في
آخر الزمان ، كما قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن مصعب ، حدثنا عمارة عن أبي
نضرة ، عن أبي سعيد الخدري ، رضي الله عنه ; أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : "
تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة ، حتى يأتي الرجل القوم فيقول : من صعد تلكم الغداة

؟ فيقولون صعق فلان وفلان وفلان " .وقد روي في سبب نزولها ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي :حدثنا إسحاق ، حدثنا علي بن أبي سارة الشيباني ، حدثنا ثابت ، عن أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلا مرة إلى رجل من فراعنة العرب فقال : " اذهب فادعه لي " . قال : فذهب إليه فقال : يدعوك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال له : من رسول الله ؟ وما الله ؟ أمن ذهب هو ؟ أم من فضة هو ؟ أم من نحاس هو ؟ قال : فرجع إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخبره ، فقال : يا رسول الله ، قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك ، قال لي كذا وكذا . فقال : " ارجع إليه الثانية " . أراه ، فذهب فقال له مثلها . فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك . قال : " ارجع إليه فادعه " . فرجع إليه الثالثة . قال : فأعاد عليه ذلك الكلام . فبينما هو يكلمه ، إذ بعث الله ، عز وجل ، سحابة حيال رأسه ، فرعدت ، فوقعت منها صاعقة ، فذهب بقحف رأسه فأنزل الله : (ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال) ورواه ابن جرير ، من حديث علي بن أبي سارة ، به ورواه الحافظ أبو بكر البزار ، عن عبدة بن عبد الله ، عن يزيد بن هارون ،

عن ديلم بن غزوان ، عن ثابت ، عن أنس ، فذكر نحوه .وقال : حدثنا الحسن بن محمد ، حدثنا عفان ، حدثنا أبان بن يزيد ، حدثنا أبو عمران الجوني ، عن عبد الرحمن بن صبحر العبدي : أنه بلغه أن نبي الله بعثه إلى جبار يدعوهم ، فقال : رأيتم ربكم ، أذهب هو ؟ أو فضة هو ؟ أو لؤلؤ هو ؟ قال : فبينا هو يجادلهم ، إذ بعث الله سحابة فرعدت فأرسل عليه صاعقة فذهبت بقحف رأسه ، ونزلت هذه الآية .وقال أبو بكر بن عياش ، عن ليث بن أبي سليم ، عن مجاهد قال : جاء يهودي فقال : يا محمد ، أخبرني عن ربك ، [من أي شيء هو] من نحاس هو ؟ من لؤلؤ ؟ أو ياقوت ؟ قال : فجاءت صاعقة فأخذته ، وأنزل الله : (ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء) وقال قتادة : ذكر لنا أن رجلا أنكر القرآن ، وكذب النبي - صلى الله عليه وسلم - فأرسل الله صاعقة فأهلكته وأنزل : (ويرسل الصواعق) الآية .وذكروا في سبب نزولها قصة عامر بن الطفيل وأريد بن ربيعة لما قدما على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المدينة ، فسألاه أن يجعل لهما نصف الأمر فأبى عليهما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال له عامر بن الطفيل ، لعنه الله : أما والله لأملأنها عليك خيلا جردا ورجالا مردا . فقال له رسول الله ، صلى الله عليه وسلم

: يَأبَى اللَّهُ عَلَيْكَ ذَلِكَ وَأَبْنَاءُ قَيْلَةٍ . يَعْنِي : الْأَنْصَارَ ، ثُمَّ إِنَّهُمَا هُمَا بِالْفَتْكِ بِالنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَجَعَلَ أَحَدَهُمَا يَخَاطِبُهُ ، وَالْآخَرَ يَسْتَلُ سَيْفَهُ لِيَقْتُلَهُ مِنْ وَرَائِهِ ، فَحَمَاهُ اللَّهُ مِنْهُمَا وَعَصَمَهُ ، فَخَرَجَا مِنَ الْمَدِينَةِ فَاَنْطَلَقَا فِي أَحْيَاءِ الْعَرَبِ ، يَجْمَعَانِ النَّاسَ لِحَرْبِهِ ، عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَى أُرَيْدٍ سَحَابَةً فِيهَا صَاعِقَةٌ فَأَحْرَقَتْهُ . وَأَمَّا عَامِرُ بْنُ الطَّفِيلِ فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ الطَّاعُونَ ، فَخَرَجَتْ فِيهِ غَدَةٌ عَظِيمَةٌ ، فَجَعَلَ يَقُولُ : يَا آلَ عَامِرٍ ، غَدَةٌ كَغَدَةِ الْبَكْرِ ، وَمَوْتَ فِي بَيْتِ سُلُولِيَّةٍ ؟ حَتَّى مَاتَا لِعَنْهُمَا اللَّهُ ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ : (وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ) وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ لُبَيْدُ بْنُ رَبِيعَةَ ، أَخُو أُرَيْدٍ يَرِثِيهِ : أَخَشَى عَلَى أُرَيْدٍ الْحَتُوفَ وَلَا أَرْهَبُ نَوَى السَّمَاءِ وَالْأَسَدَ فَجَعَنِي الرِّعْدَ وَالصَّوَاعِقَ بِالْفَارِسِ يَوْمَ الْكَرْبَةِ النَّجْدِ وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبْرَانِيُّ : حَدَّثَنَا مُسْعِدَةُ بْنُ سَعْدِ الْعَطَارِ ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُنْذِرِ الْحَزَامِيُّ ، حَدَّثَنِي عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عِمْرَانَ ، حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَعَبْدُ اللَّهِ ابْنَا زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ ، عَنْ أَبِيهِمَا ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، أَنَّ أُرَيْدَ بْنَ قَيْسِ بْنِ جَزْءِ بْنِ جَلِيدِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ كِلَابٍ ، وَعَامِرُ بْنُ الطَّفِيلِ بْنِ مَالِكٍ ، قَدَمَا الْمَدِينَةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَانْتَهَيَا إِلَيْهِ وَهُوَ جَالِسٌ ، فَجَلَسَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ عَامِرُ

بن الطفيل : يا محمد ، ما تجعل لي إن أسلمت ؟ فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :
" لك ما للمسلمين ، وعليك ما عليهم " . قال عامر بن الطفيل : أتجعل لي الأمر إن أسلمت
من بعدك ؟ قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : " ليس ذلك لك ولا لقومك ، ولكن
لك أعنة الخيل " . قال : أنا الآن في أعنة خيل نجد ، اجعل لي الوبر ولك المدر . قال
رسول الله : " لا " . فلما قفلا من عنده قال عامر : أما والله لأملأنها عليك خيلا ورجالا
فقال له رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : " يمنعك الله " . فلما خرج أريد وعامر ، قال
عامر : يا أريد ، أنا أشغل عنك محمدا - صلى الله عليه وسلم - بالحديث ، فاضربه بالسيف
، فإن الناس إذا قتل محمدا لم يزيدوا على أن يرضوا بالدية ، ويكرهوا الحرب ، فنعطيه
الدية . قال أريد : أفعل . فأقبلا راجعين إليه ، فقال عامر : يا محمد ، قم معي أكلمك .
فقام معه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجلسا إلى الجدار ، ووقف معه رسول الله -
صلى الله عليه وسلم - يكلمه ، وسل أريد السيف ، فلما وضع يده على السيف يبست يده
على قائم السيف ، فلم يستطع سل السيف ، فأبطأ أريد على عامر بالضرب ، فالتفت رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - فرأى أريد ، وما يصنع ، فانصرف عنهما . فلما خرج عامر

وأريد من عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى إذا كانا بالحرّة ، حرّة واقم نزلا
فخرج إليهما سعد بن معاذ وأسيد بن حضير فقالا اشخصا يا عدوي الله ، لعنكما الله .
فقال عامر : من هذا يا سعد ؟ قال : هذا أسيد بن حضير الكتائب فخرجا حتى إذا كانا
بالرقم ، أرسل الله على أريد صاعقة فقتلته ، وخرج عامر حتى إذا كان بالخيريم ، أرسل
الله قرحة فأخذته فأدركه الليل في بيت امرأة من بني سلول ، فجعل يمس قرحته في
حلقه ويقول : غدة كغدة الجمل في بيت سلوية ترغب أن يموت في بيتها! ثم ركب
فرسه فأحضره حتى مات عليه راجعا ، فأنزل الله فيهما : (الله يعلم ما تحمل كل أنثى
وما تغيض الأرحام) إلى قوله : (وما لهم من دونه من وال) [الرعد : 8 - 11] - قال
: المعقبات من أمر الله يحفظون محمدا - صلى الله عليه وسلم - ثم ذكر أريد وما قتله
به ، فقال : (ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء) الآية . وقوله : (وهم يجادلون في
الله) أي : يشكون في عظمته ، وأنه لا إله إلا هو ، (وهو شديد المحال) قال ابن
جرير : شديدة مماحلته في عقوبة من طغى عليه وعتا وتمادى في كفره . وهذه الآية شبيهة
بقوله : (ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكركم أنا

دمرناهم وقومهم أجمعين ([النمل : 50 ، 51] .وعن علي ، رضي الله عنه : (وهو

شديد المحال) أي : شديد الأخذ . وقال مجاهد : شديد القوة .